

المابعديات وفكرة مسار الدورات الحضارية عند مالك بن نبي  
Almabdiat and the idea of the path of civilization cycles

according to Malik bin Nabi

د. عبد القادر العربي  
جامعة محمد بوضياف – المسيلة (الجزائر)

ملخص:

إنّ الناس جميعا يعيشون عصرهم لكن الذين ينفذون ببصائرهم إلى أعماقه فيسبرونه ويحيطون بجملة معانيه قليل ما هم، ولم يورق مفكرنا مالك بن نبي معنى من المعاني وأضناه مشكل من المشاكل ولا شد عقله معقول من المعقولات أو ظاهرة من الظواهر مثلما جذبته مشكلة الحضارة، وضم إليه معنى التاريخ ودلالة الإنسانية فاعتبر التاريخ لحظة من إرادة الإنسان في صورته الاجتماعية ومظهرها من مظاهر نجاحه أو فشله

الكلمات المفتاحية: العصر، المعقولات، مالك بن نبي، مشكلة الحضارة.

**Summary :**

All the people get to live their respective era but only few that try to understand it on a deeper level , and so it was for “ Malik ibn Nabi” for how he handled meanings as well as the interpretations when it comes to a civilization in question in addition to trying to understand the history and how it relates to the humanity and more specifically one’s own will , whether it was about his failure or success .

**Keywords :** Era – Meanings – Interpretations -Civilization – History – Humanity .

## 1- مقدمة :

إنّ الناس جميعا يعيشون عصرهم لكن الذين ينفذون ببصائرهم إلى أعماقه فيسبرونه ويحيطون بجملة معانيه قليل ما هم، ولم يورق مفكرنا مالك بن نبي معنى من المعاني وأضناه مشكل من المشاكل ولا شد عقله معقول من المعقولات أو ظاهرة من الظواهر مثلما جذبته مشكلة الحضارة، وضم إليه معنى التاريخ ودلالة الإنسانية فاعتبر التاريخ لحظة من إرادة الإنسان في صورته الاجتماعية ومظهرها من مظاهر نجاحه أو فشله، وفرق بين الجانب الطبيعي " البيولوجي " وبين الجانب الاجتماعي في الإنسان، فلم يتصور الزمان الطبيعي على نحو ما ، تصور الزمان التاريخي أو الإنساني، فالزمان الطبيعي إنما هو مجرد آلي رتيب أما الزمان التاريخي فهو زمان مبدع فعال وذو اتجاه حركي والشعور بمشكلة الحضارة وتحليلها إلى عناصرها إن هو إلا إدراك لروح العصر بل كل عصر والإرادة الحضارية إن هي إلا شرط ضروري لوجودها نفسه، فالصورة العامة لحركة المجتمعات هي حالة متغيرة بفعل مفهوم الفكرة المضادة للسكون؛ لأنّ طبيعة الحياة التجديد في ظل التغيير المتلاحق والمستمر لذلك صارت الرؤية الاستشرافية لفكر مالك بن نبي ذات أولوية هامة من الناحية الأنثروبولوجية، ومنه فالعقل الخامل سيطر عليه اللحظة الدائمة بينما العقل المنتج له ديمومة فاعلة من هنا كان " مالك بن نبي " صاحب رؤية مستقبلية تجاوزت زمان وجوده إلى وجود غيره في وقته وفي الأوقات التي تلي وجوده، كيف لا وهو الذي راهن على أن يفهمه الجيل الذي يأتي بعده ونحسب أنفسنا منه مطالبين بوضع استراتيجية للفهم قد قدمت للعالم لكي يفهما وهي مسألة تتطلب الكثير من الجهد الفردي والجماعي، لكن هذه المهمة ليست مستحيلة بفضل العقول التي تقف للمساءلة لا للتحقيق، لأن السؤال يأتي وفق براديجمات من شأنها أن تدفع بالفكر إلى تجاوز مرحلة التفسير ومعايشة حالة الفهم وتجاوز حالة الغربة التي استحكمت على فكر " مالك بن نبي " الذي نظر من سجاجف الغيب يوما ما وقال لابنته رحمة أو لزوجته خديجة " سأعود بعد كذا من السنوات وسيطلع على فكري من يهमे حاضر ومستقبل الوطن " ونحن نتساءل هل يمكننا تجاوز إقصاء فكر مالك بن نبي وتحقيق أقول الأفكار الميثة؟ هل حققنا مرآهنا على فهمنا له؟ أيمكننا وضع آلية مستقبلية فاعلة إنسانيا وحضاريا تقبل الاستمرارية لما هو قادم؟ لكن قبل الخوض في هذه القضايا والإشكالات لا بد وأن نتعرف على شخصية هذا العبقرى الذي فرط فيه قومه فمن هو مالك بن نبي؟

## 2- بن نبي سيرة ومسيرة :

هو مالك بن الحاج عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي وابن زهيرة حواس ولد يوم 5 ذي القعدة 1323 هجرية الموافق ل 1 يناير 1905 م بقسنطينة، انتقل إلى تيسة حيث تعلم القرآن الكريم ودخل المدرسة نال بها شهادة الدراسة الابتدائية عام 1918 م بدرجة جيد ووفق في امتحان اجتازه ليدخل عن طريقه إلى التعليم الثانوي بقسنطينة فكان يحضر دروس الفقه للشيخ ابن العابد ودروس النحو العربي والصرف على الساعة السابعة من كل صباح قبل الالتحاق بالثانوية في الجامع الكبير، إذ كان يتابع منظر الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو يمر أمام " مقهى بن يمينة " ذاهبا إلى مكتبه في " نهج الأربعين شريف"، وبدأ يميل إلى المطالعة منذ حداثة سنه ونعومة أظفاره فقرأ لجول فارن وتذوق العبقرية الشعرية الجاهلية وشعر عصور الازدهار المعرفي الأموي والعباسي وكان له اطلاعا واسعا على عيون الشعر قديمه وحديثه يومئذ وطالع كتب لامارتين وفارير ولوتي وكوندياك في الفلسفة مما فتح ذائقته على الإبداع، قال مالك بن نبي وهو يتحدث يومها عن الفيلسوف كوندياك " وضع عقلي وأفكاري وفضولي أو بالأحرى ثقافتني باتجاه محدد " (نبي، 1984، ص 114)

طالع مالك بن نبي "رسالة التوحيد" لمحمد عبده " وكتاب "الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق " للكاتب التركي أحمد رضا، كما أنه طالع واستفاد من كتاب " أم القرى " لعبد الرحمن الكواكبي، والذي أقتعه " بأن الإسلام بدأ ينظم صفوفه ليدافع عن نفسه ويقوم بحركة بعث جديد " (نبي، 1984، ص 87)

وقرأ في التاريخ الإسلامي " مروج الذهب ومعادن الجوهر " للمسعودي و" مقدمة ابن خلدون لكن أكبر موجه له ومن وضعه على السكة الصحيحة لدراسة الفكر هو صديقه "حمودة بن ساعي"، وفي عام 1925 م أنهى دراسته الثانوية والتحق في صيف العام ذاته بفرنسا بحثا عن عمل ولكنه سرعان ما عاد وفضل العمل ببلاده حيث عُيّن عوناً في محكمة أفلو بالأغواط شهر مارس من عام 1927 م، وكانت نية مالك بن نبي في هذا المنصب هو منافسة الفرنسيين في هذا المنصب، وقد كان وراء دخول أول عدد من جريدة أو مجلة الشباب إلى أفلو، وبدأت خبرته السياسية والاجتماعية تنمو يوماً بعد آخر حيث انتقل في العام الذي يليه إلى شلغوم العيد ونظراً للغلظة في معاملته وازدراؤه من المعمرين وأذئابهم فضل الاستقالة عام 1928، كما فشل بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929م في الحصول على عمل بإحدى المطاحن، وبدأ يفكر في كيفية توظيفه واستقراره في منصب عمل قار يضمن له قوت الأسرة، وفي سبتمبر من عام 1930م عاود الكرة وهاجر إلى فرنسا بغرض الدراسة ومزاولة تعليمه

الأكاديمي، فأجرى امتحانا لدخول معهد الدراسات الشرقية بباريس وزار على إثرها متحف الفنون والصناعات وهو الذي دفعه للتفكير في البحث عن "مشكلات الحضارة"، كان يتردد على جمعية "الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين" الواقع في "شارع تريفيز في الحي التاسع من باريس" واكمل فيه تكوينه وذلك باطلاعه على الجانب الروحي للحضارة الغربية، كما أن معرفته لصديق أوروبي كان يأخذه معه إلى بيته أطلعته عن الحضارة والحياة الأوربية من الداخل في إطار عائلي، ولما سجل في المعهد اللاسلكي ازدادت معرفته للحضارة الغربية من جانبها النظري، عام 1931م وفي مكتبة "سانت ببيف" تعرف على فتاة فرنسية اسمها "بوليت" فتزوجها وأخذت على عاتقها حياته المادية في البيت وانتظمت بذلك حياته وعرف الاستقرار المادي بعض الشيء، وهدى الله هذه الشابة الفرنسية إلى الإسلام فسمت ذاتها "خديجة" ومع زيارات صديقه "حمودة بن ساعي" الذي كان منتما لجامعة السربون قسم الفلسفة وتلميذا للمستشرق "لويس ماسينيون" كان موضوع الحوارات هو السياسة والدين والفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ يعني كشكولا من المعارف وكان يغرف من كل معين ما يحتاجه في حياته الفكرية واليومية، كان مالك بن نبي كثير النشاط وصار مراقبا من مصالح الأمن الاستدمارية خاصة بعد مشاركته في نشاط "الحزب الوطني الجزائري نجم شمال إفريقيا" و"جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا" التي انتخبته نائبا للرئيس و"جمعية الوحدة العربية السرية" التي أسسها "فريد زين الدين" أحد المقربين من "شكيب أرسلان" ألقى بن نبي محاضراته الأولى في ديسمبر 1931م وكان عنوانها لماذا نحن مسلمون؟؟ فكانت مفتاح شهرة له في الوسط الثقافي الطلابي في باريس كتب مالك بن نبي منشورات ضد الممارسات الاستدمارية في الدول الإسلامية ووزعها مع صديقه "حمودة بن ساعي" في شوارع باريس وتعرف على الطلبة العرب المقيمين بباريس مثل "محمد عبد الله دراز، محمد المبارك، صبحي الصالح..". وساعد بعضهم على تعلم اللغة الفرنسية وتعرف من خلالهم على أحوال المشرق العربي واستفاد من ثقافتهم العربية والإسلامية الواسعة، وقد فكر في هذه الفترة الذهاب إلى الأزهر لدراسة مناهج التفسير، بعد عودة مالك بن نبي في صيف عام 1933م لقضاء عطلته مع أهله بتبسة لاحظ أن وتيرة الحركة الإصلاحية قد عرفت تسارعا بحيث فقدت الطرقية مكانتها الأولى في صفوف أفراد المجتمع، وخلال العام الدراسي 1933م/1934م وقبل نهايته بقليل بلغ مالك بن نبي خبر وفاة والدته "زهيرة حواس" رحمها الله وهو بباريس فتأثر لهذا الحدث أيم تأثر وعقد العزم على حصوله على شهادة اللاسلكي وفاء لروحها وكان وجود صديقه "حمودة بن ساعي" في تلك الفترة إلى جانبه خفف عنه صدمة فراق أمه الغالية، وقد أعلن مالك بن نبي عن هذه العلاقة في قوله "وبعد أربعين سنة" يومئذ "

عندما تعود لي اليوم بعض الذكريات من تلك الفترة أدرك أنني مدين لحمودة بن ساعي رحمه الله باتجاهي كاتباً متخصصاً في شؤون العالم الإسلامي حتى لو أنني لم أنجز معه أي عمل بعيد المدى"، و بقي في مدرسة اللاسلكي إلى غاية 1935 فتخرج منها بشهادة مهندس في الكهرباء ولكن السلطات أمعنت في تعذيبه معنوياً وذلك بعدم تمكينه الحصول على شهادته الجامعية لتعطل مشروعه الفكري وتشغله عن التفكير في تحقيق أفكاره فهي أرادت التشويش عليه، لكنه لم يبق مكتوف الأيدي يستجدي الآخرين وإنما شمر على ساعديه واشتغل ككاتب في بلدية "درو" التي تبعد عن باريس حوالي 120 كلم وعمل كمدرس للغة الفرنسية لأبناء الجالية العربية هناك، وعند عودته للجزائر كان يقدم دروساً مجانية لأبناء وطنه تطوعاً من عنده حتى يتحدى فرنسا التي أشهرت سلاحها في وجهه، وأعلنت المبارزة العلمية والثقافية جهاراً نهاراً فكان صلد العزيمة وسعى لتعليم أبناء وطنه ما يحتاجونه لمواجهة عدوهم الأول والأخير الجهل وفرنسا بجبروتها وغطرستها، وفي هذه الفترة كان قد اطلع على كتب "بلازاك" ليعرف فرنسا من الداخل ويواجهها بالسلاح ذاته الذي تستعمله معه، وفي عام 1938م أسس بعض العمال الجزائريين بمدينة مرسيليا نادي "المؤتمر الجزائري الإسلامي للثقافة" فاستدعي مالك بن نبي للإشراف عليه يعلم العمال الأميين عشية كل سبت ويلقي محاضرة عامة للجمهور مساء الأحد، لكن السلطة الفرنسية ضاقت به ذرعا وتبرمت من نشاطه الفكري والمعرفي فمنعته من مزاولة هذا النشاط مستقبلاً إضافة إلى أن هذا النادي تحول عن أصل نشأته وهو التثقيف والتعلم فبرزت له نشاطات سياسية وشارك المنتسبون إليه في مظاهرات تنديداً بأفعال المستعمر في الجزائر وغيرها من البلدان، ثم عاد إلى الجزائر عام 1939م بنية خدمة أبناء وطنه وذلك بتأسيس معهد قسنطينة لتحضير الطلبة الذين يرغبون في الدخول إلى كليات الهندسة بفرنسا، لكنه لم يجد أي تجاوب من السلطة الفرنسية ونظراً للأوضاع المزريّة في تلك الفترة والتي كان يمر بها الوطن قرر في 22 سبتمبر 1939م العودة إلى فرنسا عن طريق الباكورة، فبعد دخول ألمانيا لفرنسا حاول مالك بن نبي مع بعض الشرفاء من أبناء الجالية العربية تكوين حركة "لتحرير شمال إفريقيا" فتم القبض عليه في شهر أوت 1944م وأدخل السجن وبقي فيه لغاية اندلاع مظاهرات 8 ماي 1945م ثم أعيد سجنه من جديد حتى لا يحتك بالجمهير فيؤجج روح التظاهر عندها ويحرض المتظاهرين على كسر القيد الاستدماري، عام 1951م سافر مالك بن نبي إلى قرية "درو" وبقي فيها لغاية عام 1956م ثم هاجر إلى القاهرة حمل معه مخطوط كتابه "فكرة الإفريقية الآسيوية" وترك زوجته الفرنسية بباريس وظل يرأسها وتراسله إلى أن انقطعت أخبارها عنه، وبمصر حاول التعرف على عمالقة الفكر والثقافة لتبادل الخبرات والتخطيط للمستقبل،

كما أنه أدى فريضة الحج عدة مرات، ثم استقر به المقام بالقاهرة كلاجئ سياسي وهناك كان نشاطه المعرفي والتقى بنخبة من المفكرين منهم محمد عابد الجابري الذي قال " كان فرح صاحبنا " يقصد مالك بن نبي " ورفاقه فرحا غير عادي وهم يستعدون للنزول في الإسكندرية، وفرحة زيارة الإسكندرية ليس من حيث أنها مدينة الإسكندرية ذاتها بل من حيث أنها مصر قبله الناس في المغرب فهي التحرر وهي التقدم، كانت النموذج والمثال للشعوب التي تناضل من أجل استرجاع سيادتها واستقلالها وبناء غدها " (الجابري، 1997، ص 155)

عاد مالك بن نبي إلى الجزائر عام 1963م وعين مديرا عاما للتعليم العالي وبقي في هذا المنصب لغاية 1967م ثم قدم استقالته لتعرضه لمضايقات، كان له الفضل في بعث فكرة إعداد مصليات في الجامعة ونواة ملتقيات الفكر الإسلامي، توفي مالك بن نبي رحمه الله يوم 4 شوال 1393 هجرية الموافق لـ 31 أكتوبر 1973م بالجزائر العاصمة توفي بعيدا عن الأضواء ودفن بمقبرة سيدي محمد بالجزائر العاصمة وألقى الكلمة التأبينية عليه الدكتور عمار طالبي يومئذ " مالك بن نبي حُرْم حتى من جنازة في مقام الرجل حيث قمنا بنقل جثمان بن نبي إلى الجامعة حيث مكانته الحقيقية وصلينا عليه بجامعة الجزائر وتم تشييع جثمانه بمقبرة سيدي محمد وتكفلت بقراءة تأبينيته " (طالبي، 1993، ص 9) .

### 3- فكر المابعديات :

يعد القرن العشرين على صعيد الفلسفة والنقد والنظرية قرن المابعديات مثل ما بعد البنيوية وما بعد الماركسية والمابعديات التي عرفت في النصف الثاني من القرن العشرين بذلت فيه الرؤى النظرية والتيارات الفلسفية والمدارس النقدية بصورة لم يشهدها أي قرن آخر، وقد انعكس ذلك بوضوح تام على الفكر النقدي إيجابا أو سلبا لكن الحصيلة التي خرج بها الفكر النقدي المعاصر كانت ايجابية ، بل ثرية انطلاقا من الشكلانيين الروس مرورا "برولان بارت وميخائيل باختين وتزفيتان تودوروف وانتهاء بادوارد سعيد" على اختلاف تصوراتهم النظرية والنقدية فبعض النقاد في الغرب وكذلك في الشرق يعدون هذه المابعديات مجرد تقليعات وموضات تتصل بطبيعة العصر الحديث المتحولة التي لا تستقر على حال، فيما يعدها البعض الآخر نوعا من الانتفاض على ما استقر في الفكر النقدي الذي أصبح يدور على نفسه ويكرر ذاته، بحيث لم يعد قادرا على إضافة شيء إلى ما أنجزه السابقون من النقاد فإذا أخذنا من هذه المابعديات وجهها الإيجابي فيما يتعلق بالنقد والنظرية، فقد حصلت خلال

النصف الثاني من القرن العشرين على صعود نماذج مثل البنيوية والتي تتلخص في التركيز على الشروط التاريخية للنص وأن تعيد الكتابة النقدية إلى الأصل أي النص، لكن البنيوية أسرفت بتركيزها على النص إلى درجة أن النصوص أصبحت أصناما ومن ضمن تلك الصنمية التي تلبست الفكر النقدي المعاصر القول بموت المؤلف، وُعِدَّت الكتابة مجرد ألعاب لغوية -الفكرة في أصلها لفتغنشتاين - كما يقول تيار التفكيك الذي يعد ابنا شرعيا للبنيوية، ومع هذا فقد شهد الربع الأخير من القرن العشرين ثورة عارمة في العلوم الإنسانية ومن ضمن ذلك التيار الذي يأخذ بشروط التأريخ ليصبح واجهة النظريات في الوقت الراهن، ويمكن أن نلمس هذا التحول في بنية النظرية وتوجهاتها، وآليات عملها من خلال التشديد على التاريخ وشروطه وكذلك على الذات البشرية الفاعلة وأهمية القارئ وتفاعل الذوات المنتجة للنصوص وهو ما جعل الناقد البريطاني -تيريتس فرانسيس ايجلتون- يتحدث في كتابه " ما بعد النظرية " الصادر عام 2004م، حيث نلاحظ تسلسل كلمة ما بعد إلى عنوان الكتاب عن رحيل النظرية، ودخولنا ما يسميه " عصر النقد الثقافي" والنوع الأخير من النقد يجمع تحت مظلته أشكالاً متعددة من التفكير بالنقد والنظرية والتاريخ وتشابك العلاقات في عالم الكتابة، وإعادة النظر في تاريخ الشعوب والأفكار والنظريات بحيث نعود إلى شكل ممتد أكثر سهولة وقدرة على فهم العلاقات المعقدة لإنشاء النصوص وتكون القوميات وصعود الشعوب والإمبراطوريات ومن ثم انهيارها وذوبانها وتبادلها مواقع القوة والغلبة .

#### 4- مالك بن نبي بين قراءة فكره والقطيعة مع الواقع:

المابعديات هي ترسانة من الأفكار نستعمل ما ينبغي في موضوعنا هذا حول الحضارة ودور العقل في تفعيلها عند مالك بن نبي فإذا اعتبرنا مرحلة مالك بن نبي قد انتهت والحيل الحالي مطالب بتجسيد مراهنته التي تركها لنا قد نقع من خلالها في اكتمال مرحلة، أو تجاوزها وتغيير النماذج حسب معطيات حالية وبداية واقع جديد نعيشه بمفهوم ما بعد ولكي تكتمل صورة المابعد يجب مراجعة الكثير من القراءات التي لم تنتقل إلى حيز الفعل والتجسيد بدليل الكم الهائل من الرسائل والدراسات والمقالات لكن سياسة الواقع تظل بعيدة عن المجتمع، فإذا كانت ما بعد العلمانية قد تكون رأسمالية مجتمعية ومن العلمانية والعلمانية المتسامحة فهل حققنا مفهوم ما بعد القراءة لتجاوز الأفكار الميتة؟ والانتقال من الوعي العقلي إلى الوعي الفعلي في ظل المتغيرات الجذرية التي وصل إليها المجتمع العربي المسلم من انهيارات لواقعه؟ فإذا كان المقابل للفكرة لا يقوى على الفعل فلا يمكننا المراهنة على فاعلية واستمرارية فكر مالك بن نبي مستقبلاً، مشروعه سيظل حقيقة فلسفية لا يمكننا تجاوزها لكنها تحتاج إلى جيل يستثمر في المتغيرات المحيطة به إنسانياً وفق طموحات وتحديات قد نصف من خلالها

أن المابعدية لها قوة الفكرة لكنها تصطدم بفشل مستخدميها، لأسباب تتعدد وأهمها الخطاب المنتج لنسقية استهلاكية دون مواجهة الأفكار الميتة، ما نريده يصعب في الكثير من الحالات تحقيقه لأنه يتصل بالحاضر المبني على تجارب فاشلة ابتعدت كثيرا عن الفكرة الحضارية البنائية، قد يتفاعل البعض في ظل المتغيرات الجديدة والتي تريد نظاما دوليا جديدا وفق هيمنة لا نشارك فيها بل نتأثر بها وبحكم هذا التأثر قد نعيد مراجعة مشروع الفكرة الحضارية لمالك بن نبي بما يتفق مع طموحات المجتمع الشرق أوسطي، لكن هذا التفاؤل يتوقف على نموذج الأشخاص ونوعية التأثير الاجتماعي والذي لا يبقى محل الدراسات الأكاديمية بل يمتد إلى المجتمع بكل أطيافه وتنوعه الثقافي، لأن القطيعة التي سادت بين الأكاديمي والأكاديمي هي التي جعلت البحث الأكاديمي حول مالك بن نبي مجرد اقتباسات وتعليقات لاقتباسات سابقة لا تقدم للفكر المراجعاتي نتائج، يمكننا إدراجها ضمن مرانها مالك بن نبي لأن المابعدية التي نعيشها ضمن خطاب الهوية والسلطة السياسية واليقين الذي يريده البعض وما إلى ذلك هو مرتبط بالانفصال وعدم التفاعل بين النظرية والواقع .

هذا التفاؤل إذا لم يتم وضعه ضمن أطره الموضوعية قد يأخذنا بعيدا عن الفكرة الاستشرافية التي رسمها مالك بن نبي وقد يفتح كلاما وسجالا لدى البعض ممن يدرج المابعدية في وضع مالك بن نبي ضمن مرحلة منتهية لها سياقاتها التي لم تعد قابلة للتوقع، بحكم المتغيرات رغم أنّ القاعدة لا تختلف فيها حول الفكرة الميتة التي لم تعد قابلة للتطبيق، فهو مفكر تجاوز زمانه وربما هو موجود بفعل قوة فكرته ويذكرني هنا بمقولة جون بول سارتر " سأكون حيث لا أكون" فهو حاضر عندما يراهن على الأجيال التي ستأتي بعده لأنها ستفهمه لكن إذا تم لها الفهم فهل تم لها الفعل؟؟

من هذه الزاوية يمكننا الحديث عن النماذج السياسية التي أبعدت الفكرة عن التجسيد قصدا أو عن غير قصد أو بحكم المرحلة لا زالت تتطلب الفهم أكثر ، ربما هي ممتدة إلى المابعد.

الفكرة .....مستمرة مع مرحلة الفهم .

المابعد ..... مستمر مع الفهم .

التنفيذ واقع يتجاوز المابعد المستمر مع استمرار الفهم .



بمعنى لا زالت الدراسات في مرحلة الفهم لما كتبه مالك بن نبي وقراءة ما كُتب عنه أما المراهنة على التفعيل كروية استشرافية يتطلب واقعا آخر تكون من خلاله مرحلة الفهم قد استقرت في الأذهان ولم تبق مجرد دراسات معزولة تحقق أهدافها الفردية دون رؤية استشرافية لمستقبل فكر مالك بن نبي .

فإذا كان الراهن تعددت فيه المابعديات وأصبحنا نسمع من يتكلم عن نهاية نهاية الأيدولوجيا بمعنى نتحدث عن نهاية الفهم الذي نختلف فيه حسب الإيديولوجي، سنفتح ساعتها على مشروع إنساني لمالك بن نبي يجمعنا بفكرة الحضارة ممكن أن يكون فيها في المنطقة الشرق أوسطية في أي بلد فيها المسلم والمسيحي وحتى اللاديني يشتركون فيها لتحقيق الحضارة الإنسانية، لأنه لما تكلم عن الحضارة وأسسها تكلم عن الإنسان ثم التراب والزمن ولم يحدد إيديولوجية هذا الإنسان؛ وبالتالي لا يمكن لمجتمع متشرذم سياسي أن يحقق فكرة مالك بن نبي، ومنه فالوجود الذي يبحث عنه في هذا المشروع هو وجود القيمة الإنسانية .

وبحكم أنّ المطلقة واكتمال الرأي لا يحملها البشر فمالك بن نبي وضع مشروعاً هادفاً لإنسان لم يأت بعد، لكن هذا الإنسان ليس في مستوى هذه الرؤية ربما النظرة المتعالية جداً هي التي جعلته يضع مشروعاً يصعب وضع تصورات له خارج الأيدولوجيا، أو الفلسفات التي تتسم بها حياة الناس .

هل كان مالك بن نبي يقصد بفكرة الحضارة المنطقة العربية؟ المحتمل لا؛ لأنّ الحضارة تنتقل من مكان لآخر غير محددة لأن الشروط تتحقق حسب نجاح المجتمع في مكان ما وفي زمان ما، ولو كان مجتمعاً بوندياً أو لا دينياً، هذه الشروط التي ندرسها جميعاً " الإنسان والزمن والتراب " نختلف في فهمها وخاصة في حالة عدم مراجعة أفكارنا وإصرارنا على تكرار الأخطاء، فمثلاً لم يعد تفكير أفلاطون أكثر من تفكير بارمنيدس ولم تعد فلسفة هيجل أكثر كمالاً من فلسفة كانط، وهكذا فكل عصر فلسفي له ضرورياته وهذا ما انتهجه الفكر الغربي يراجع ذاته آلياً حتى دخل القرن العشرين بأنساق متعددة، أما ما يحدث عندنا فنعرفه جميعاً المراجعة صعبة وإعداد آليات جديدة يخضع إلى الرأي المطلق، والقبول والرفض قطيعة للفكر المتجدد الذي يبني الفكر الحضاري الذي دعا إليه مالك بن نبي.

الرؤية التي نحقق من خلالها مشروع مالك بن نبي قائمة على تعاون خارج الأيدولوجيا يفترض تعدد الأنساق حتى تكتمل الصورة في مكان ما وزمان ما، هذا

الاكتمال لا يعني النهاية بل الانفتاح والتواصل مع وقائع المجتمع ومشكلاته بكل أصنافها، فالنجاح يرتبط بالتجسيد الذي لم يأت بعد لأننا غرقنا في الفهم وتوغلنا كثيرا ولم ننفق إلا في حدود منافع آنية، لا علاقتها لها بمشروع مالك بن نبي أذكر هنا مقولة لهيجل " المآسي الحقيقية في العالم هي نتيجة الصراع بين الحق والباطل "، قضية اختصر من خلالها هيجل الحضارات الإنسانية واستفاد منها مالك بن نبي في فهم المتناقضات وكيفية التكامل بينها للحصول على كل جديد واستمرارية الحياة لدى الإنسان في بناء الأفضل، حتى وإن تم لنا التطبيق يبقى الفهم مرافق له؛ لأنّ المفكر يبقى محل مساءلة دائمة .

## 5- خاتمة :

على ضوء هذا يعتبر مالك بن نبي فيلسوف العصر قد رسم أنموذجا قادرا للتطبيق في كل مكان وزمان ومهما اختلفت العصور ومراهنته لنا بقيت حيزا للفهم ولم تقو على التحقق نظرا للعوائق المعرفية والوجودية اقتضتها شروط منافية لجماليات التحقق، لم نرها اليوم وربما قد يراها غيرنا لأنّ القاعدة الفكرية تؤسس لفعالها ويثير هذا المفكر الإسلامي خلال فترة القرن العشرين أحد المساهمين في نهضة فكرية إسلامية في العالم لذا يعتبره البعض قد أتم مسيرة ابن خلدون حول مشاكل الحضارة وفق أسلوب تحليلي يعتمد على أبعاد المشكلة وعناصرها الرئيسية التي يعتمدها في عملية الإصلاح، وبصورة عامة يبقى فكر مالك بن نبي فاعلا مستمرا للفهم مع تأجيل التنفيذ رغم تهميش فكره وخاصة في الجزائر، فصاحب الظاهرة القرآنية وشروط النهضة والفكرة الأفريقية الآسيوية أسس نظرية جلبت له المتاعب لكنها متاعب أسست لفكر المابعديات المفتوح على التحقق، دفع زمن ذلك في وقته حيث منع الرجل السفر أكثر من مرة لغاية تدوين خطاب رسمي للسلطات وتدخل عبد العزيز الخالدي من أجل السماح له ولعائلته لتأدية فريضة الحج ، هذه المضايقات أحاطت به من كل جانب خاصة بعد لقائه مع فيصل بن عبد العزيز رحمه الله وتعتبر هذه ضريبة للتفكير العلني لتصحيح ومراجعة المسارات بعد الاستقلال رغم عدم انتمائه لأي حزب، ورفضه هذا وفق منهجية عقلانية حيث نبه رواد الحركة الإصلاحية عموما بنقده لوجهة العالم الإسلامي والعقلية التجزيئية التي تناولت المشكلات دون انسجام ، الأمر الذي أدى إلى إقصائه وتهميشه من قبل الكثير ، فمالك بن نبي كان إنسانيا في تفكيره شموليا في مشروعه الذي تعد الحدود والأمكنة إلى أزمنة قد تأتي بعد، إن مقولة " أزهّد الناس في عالم أهله " ومقولة " لا كرامة لنبي في قومه " تنطبق تماما على مفكر الحضارة

وباعت النهضة الفكرية " مالك بن نبي " إذ كان لانتشار فكره الأثر البالغ في الكثير من المناطق عالمياً، والتي اعتبرت ما قدمه يليق بالتجربة الواقعية كما هو الأمر في ماليزيا وأندونيسا ومع ذلك قليلاً ما يرد ذكر الرجل على ألسنة الجزائريين أهل بلده فمع هذا النسيان المقصود أو المبرمج لصاحب الظاهرة القرآنية و شروط النهضة وغيرها من الدرر الفكرية ، إلا أنّ بعض المفكرين الشباب عاد ليغرف من معين هذا النابغة والمفكر النوعي الذي جاد به الزمان مرة واحدة ، وتتحقق على أرض الواقع نظرتة الاستشرافية التي قالها لابنته رحمة أو لزوجته خديجة يوماً ما سيعود الناس لقراءة فكري لاستلهام درره، فتفاعل الشباب اليوم مع صاحب " نظرية النهضة " المجتمعات النامية أو كما أسماها هو " الفكرة الأفروآسيوية " أو " الكومنولث الإسلامي"، يعد مالك بن نبي في نظر الباحثين المنصفين من أكثر المفكرين في العالم العربي تمثلاً بابن خلدون من جهة اهتماماته بقضايا العمران والتمدن والحضارة، فهو أبرز مفكر عربي عُني بالفكر الحضاري منذ ابن خلدون، اعتبر الخيار الاشتراكي الذي تبنته الدولة الجزائرية مباشرة بعد الاستقلال أحد الأسباب الرئيسة وراء انحسار فكر مالك بن نبي لدى نخب قليلة جداً، حتى أن الندوات الفكرية لتلاميذه العرب والجزائريين كانت تقام في بيته وسط العاصمة الجزائرية، إذ كان لتحفظاته واعتراضاته على النهج الذي تبنته الدولة الجزائرية، والطريقة التي سيرت بها البلاد يومئذ أدى إلى توقفه واستقالته في كثير من المرات من منصب عمله كوزير للتعليم العالي يومها ، لكن هناك عوامل أخرى جلبت المرارة والقرف لمالك بن نبي وتبرم أصحاب الحل والعقد منه، منها فكرة " القابلية للاستثمار " التي تعد من أيقونات مالك بن نبي وبصمة خاصة به هذه الفكرة جرّت عليه الكثير من العداوات إذ يقال إنه بهذه النظرية يسوّغ للاستثمار الأوربي في دول العالم الثالث، واضعا اللوم على الشعوب " لقابليتها للاستثمار " وفيه من اعتبر أنّ مالك بن نبي بالغ في استخدام هذا المصطلح والمفهوم لدعم توجهات متناقضة وقلما تتم العودة إلى الاستعمال الأصلي لمبتكر المفهوم نفسه وفي مراعاة الظروف الذي نشأ فيها هذا المصطلح، وهذا ما قال به محمد شاويش في مقال له حول نقد نظرية " القابلية للاستثمار "، في حين رأى كاتب فلسطيني هو غازي التوبة أن أضعف فكرة في أفكار مالك بن نبي هي " القابلية للاستثمار " التي ارتبطت بضرورة تاريخية انتهت بنهاية دولة الموحدين حسبه، وقدم صاحب كتاب رؤى وأفكار معاصرة عدة اعتراضات على أفكار مالك بن نبي رحمه الله، ومما قاله غازي التوبة " لم يعد الإنسان والتراب والوقت عوامل حضارة بل أضحت عناصر خامدة ليس بينها صلة مبدعة"، إنّ مالك بن نبي لم يُقرأ لليوم جيداً ولم نستطع معرفة كنه أفكاره في وقتنا الحاضر فلم نعطه حقه من التقدير والتبجيل والاحترام، لأنه نبه نخبنا السياسية إلى

ضرورة الاعتماد في معالجة قضايا الأمة على فهم الواقع وأي إصلاح أو تغيير يجب أن ينطلق من الأرض التي يعيشون فيها، فقد دعانا بن نبي أن نعيش بعقلية الزمن الحاضر لا بعقلية الماضي وهو أحد شروط النهضة التي حددها مالك بن نبي، إنها وقفة سريعة مع مفكر عملاق يمكن أن نجزم بأن ما كُتِبَ حوله خارج الثقافة العربية أكثر مما كُتِبَ داخلها، بل إن فكره وآراءه الفلسفية قد أنجزت حولها الكثير من الأبحاث الأكاديمية ومهما يكن فإن مالك بن نبي لا يزال مظلوما في حضارتنا الراهنة لأننا لم ننتعمق في كتبه، ولم يسع الكثير ممن وصلوا إلى مقاليد الحكم عندنا إلى العمل بما قدمه من مواقف، أبسط ما يمكن أن نقوله عنها بأنها تقدمية، وبأنها تتجاوز الراهن بكثير تلك المواقف التي تتحرك وفقها الآلة الحضارية الغربية في جانبها الفكري، في حين نبقى نحن نتهم مفكرنا بالرجعية ولكنها في الحقيقة مراجعة للذات، لقد كانت المنظومة الفكرية لمالك بن نبي منظومة تتحاور فيها كل العلوم الإنسانية قصد خدمة الإنسان المسلم، ففيها يتفاعل البعد الديني مع المعالم الفكرية والفلسفية لدى الغرب، كما تتفاعل في أفقها القراءة التاريخية التراثية مع البدائل الفلسفية العقلية، مع عدم إقصاء أي جانب من جوانب الإنسان بحثا عن الهدف الوحيد وهو التغيير الإنساني .

### المراجع:

1. عمار طالبي. (12, 1993). مالك بن نبي ومشكلة الحضارة. مجلة الثقافة، ص 09.
2. مالك بن نبي. (1984). منكرات شاهد القرن.
3. محمد عابد الجابري. (1997). حفريات في الذاكرة.